حين نذكُر الأقصى (*)

الناظرون في واقع أمتنا كما هو اليوم، ربما أخذتهم الصورة التي أسهمت في صنعها السنون، ووجهت إلى مواقع النظر إليها أيد لا ترقب في الحق إلاً ولا ذمة، وساعد على ذلك شيء من الاسترخاء عند أبناء الأمة أنفسهم، بتقاعسهم عن العلم حيناً، وقعودهم عن الجهاد حيناً آخر، وتوهمهم وراء ذلك كله ـ وهذا أس البلاء ـ أن ما يقوله أعداؤهم هو القول السليم؛ لأنه يقوم على البحث الحر، والاستقصاء النزيه عن الغرض، البعيد عن الشبهة والتزوير. . . وإنه لزعم لا يبلغ الزور أن يكون بعض باطله المزوَّق، والعياذ بالله.

ولقد آن للعقول والقلوب أن تتفتح وتبصر لتعمل عملها، وتضع الأمور مواضعها، فلا يداخلها غبش الصورة وزيف الحكم من حيث تشعر أو لا تشعر، ولقد آن لهذا الجيل الذي كان من قدره أن يحصد كثيراً من أشواك الأمس أن يذكر فلا ينسى؛ أن كثيراً من الأحابيل والهرطقات صيغت بخبث على شكل أفكار تصلح ـ في الوهم ـ أن تكون أساس البناء، ومنها أسطورة الرجل المريض، التي أراد أولئك الأناسي أن يعيش الشرق تحت ظلها الأسود حقبة طويلة من الزمن، وإنما هي في أكثر ملامحها من صنع أيديهم؛ حقداً على القوة النابعة من الإسلام الذي يجعل جنسية المسلم عقيدته، وإن ساعد على تكامل الشكل فيها واقع يتسم في بعض جوانبه بالتفلت من التزام الإسلام ولغة الإسلام!!.

(*) مجلة حضارة الإسلام: العدد الخامس، السنة الخامسة عشرة، رجب ١٣٩٤هـ، آب ١٩٧٤م.

لقد آن لهذا الجيل أن يذكر ذلك غير معرض عن حقيقة ماثلة هي أن الرجل الذي كان رمز تلك الحقبة أصبحت وقفته الشامخة المستقيمة في وجه محاولات اليهود وضع قدم لهم في فلسطين: مضرب المثل لكل المنصفين، الذين ترفعوا عن ثغاء القطيع، وتصفيق الهتافين: لما أنه كان ينطلق أولاً من عقيدته واستشعاره أمانة الحكم في أمة الإسلام، وأنه ـ بعد هذا ـ قد دفع ثمن وقفته الأصيلة الضاربة في أبعاد التاريخ عرشه وسلطانه وكيانه الدنيوي.

لكنها الأمانة تحمل صاحبها إلى أعلى عليين، وإن انجاب عنه زخرف الدنيا، وتضعه في مصاف الرجال حين يعز الرجال، وإن غمز ولحن القول كل هُمزة لمزة من صبية القرن العشرين، أولئك الذي حرموا عزة المسلم، وتقطَّع ما بينهم وبين الأصالة وكرامة الانتماء إلى خير أمة أخرجت للناس.

وواضح أن الأسطورة لم تقف حلقاتها بعد، ففي الخمسينيات حكم علينا أن ننسلك فيما أسموه بالعالم الثالث، وذلك عنوان القابلية للوصاية من الأسياد الذين هم أبناء الحضارة الغربية على غيرهم من أبناء الحضارة الإسلامية، أو من يجاورونهم أو يلتصقون بهم، منتظرين حكم التاريخ الذي يكتبه أولئك الأسياد بأقلام يهودية مغموسة بمداد صليبي. ويوم تصرفوا في خريطة المشرق أيام بلفور ـ وكلهم بلفور وأخبث ـ وأخرجوا ذلك إلى حيز التنفيذ في سنة ١٩٤٨، وتتابعت فضائلهم ـ لعنهم الله ـ بعد ذلك يوماً بعد يوم وعاماً بعد عام، يوم فعلوا ذلك كله، وحتى يومنا هذا في فلسطين وكثير من بقاع الإسلام: كانوا ينطلقون من نظرة السادة إلى العبيد والحقد الحاقد

الأسود، وتصورات أصحاب المزارع عن المزارعين الجاهلين تحت وطأة صراع حضاري لا يغادر من خطاهم صغيرة ولا كبيرة. . حتى تراثنا، وثرواتنا من الذهب الأسود وغير الأسود لم تكن لترهبهم وهم سادرون في تصوراتهم وحكمهم المبرم على هؤلاء القاطنين في الشرق، المعتبرين في نظرهم أناسي من درجة هابطة لا تصلح لكرامة الحياة والأحياء. ووجود الثروة في أيديهم خطأ لابد من تصويبه!!

وتدور عجلة الزمن، ويحاول الوعي أن ينفذ ـ على استحياء ـ إلى العقول والقلوب، فتطلع على الدنيا بوادر صحوة جديدة. . صحوة على الحقيقة التي غفلنا عنها تحت كابوس الوهم والانهزام. . تلك الحقيقة التي تحظى بالحرب الدائبة من الأعداء ونكران الزائغين والغافلين من بني قومنا والأصدقاء الألداء، صحوة على العقيدة، على الجهاد، على الذاتية والأصالة، على أن وحدة الكلمة يمكن أن تعمل عملها، صحوة على الإفادة من موقعنا الجغرافي وثرواتنا الاقتصادية من الذهب الأسود وغير الأسود، وذلك كله يرافق أننا حملة رسالة، وأبناء تاريخ عريق وحضارة مهيمنة، أعطت وما تزال تعطي الإنسان، وكشفت وما تزال تكشف زيف حضارة أقوياء اليوم التي تشقي الإنسان باسم الإنسان، فيهدم أبناؤها ـ في ازدواج للشخصية ـ صروح الحرية باسم الحرية، ويجرحون المساواة والعدل باسم العدل والمساواة صباح مساء. . وتعمل على أن تظل مخالب اليهودية العالمية تنهش في جسم الحق وأهله في مجال الفكر والسياسة والاقتصاد. . تصرخ حضارتنا في هذا العصر أنه لا يجوز باسم العلم التقني، والقدرة الإلكترونية، والرحلات

الصاروخية القمرية وغير القمرية أن يكون الحق دائماً للقوة وأن يستعبد الإنسان أخاه، فالإنسان أخو الإنسان أحب أم كره، وأن الإنسان هو الذي اخترع الآلة فلا يجوز أن يتخذ منها معبوداً وإلهاً، وأن الأنانية والرغبة في التسلط والحرص على مناطق النفوذ، لا يجوز أن تكون هي القيم التي تصنف على أساسها الأمم والشعوب. ولا يحسبن حاسب أني من أنصار المفاخرة بالماضي دون عمل، والاعتزاز بالحضارة دون جهد وجهاد!!

لا، والذي أنبت الهدى في واد غير ذي زرع، وأرسل من غار حراء صوت الحق في العالمين.. ولكن الذي أريده وأدعو إليه أن ننطلق من الحقيقة التي انطلق منها بناة حضارتنا الأصيلة معتزين بالعقيدة، موطنين أنفسنا على الجهاد، عاملين على الإفادة من منجزات العلم الحديث، غير غافلين عن مثالب أعدائنا وحقيقة نظرتهم إلينا، والمقاييس التي هي مجال حكمهم علينا في الماضي والحاضر.. وإنا ـ بفضل الله ـ لا نعدم الزاد الروحي، ولا القوة المادية التي ترهبهم وتجعلهم ـ على الأقل ـ يتسابقون إلى مرضاتنا كيلا تقف عجلة المصانع وتجف عن شرايين حياتهم دماء الحياة.

واليوم ـ وقد أطل على الأمة هلال شهر رجب ـ يملأ دنيانا نداء الأقصى الأسير، وقد باض الحزن وفرخ في نفوس كثيرين من أبناء الإسلام. إنه نداء المسجد الذي بارك الله حوله وأسرى إليه بنبيه محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ، ذلك النداء الحزين حيث أعداء الله والإنسانية يسرحون ويمرحون، ويأتون على أرضه المنكر ويحاولون إحراقه مرة أخرى بعد أن أحرقناه بإهمال العبادة فيه، والإعراض عن مكانته الحقيقية في حياة الأمة ووجودها.

ولقد توسع العدو في الأذى تحت سمع الدنيا وبصرها معرضاً عن صراخ المستغيثين. . هازئاً من بيانات الذين أذهبت ريحهم الفرقة والإعراض عن الله. . فهو لا يبالي أياً كانت النداءات، ومن أي جهة دولية خرجت المقررات. . وعن أي مؤتمر صدرت المقترحات.

ومن حيث الإيذاء المباشر للأقصى من الناحية المادية. . توسع في الحفر حتى شملت الحفريات اليهودية الأقسام الملاصقة لسور الحرم من الجهتين الجنوبية والغربية. . وتستمر حتى مدخل الحرم بل امتدت إلى حي المغاربة والمناطق الملاصقة هناك. وغير خاف أن الهدف من وراء ذلك إنما هو المسجد الذي كان مسرى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقبلة المسلمين الأولى، وخلخلةُ بنيانه، وإزالةُ المعالم المحيطة به. . يتأكد ذلك إذا علمنا أن بعض الحفريات تجاوز في عمقه العشرة أمتار. . وحديث ذلك جانب من المأساة التي هي أعمق وأعمق. .

إن حقيقة زمنية تحمل ما تحمل من ذكرى الإسراء والمعراج: جديرة أن تحرك العزائم وتوقظ الهمم لنكون على مستوى القضية، فنفيد من كل طاقاتنا الروحية وثرواتنا المادية وموقعنا الجغرافي، وعندها نملي لنطاع في الحق، كي نحرر الإنسان والأرض ولا نفغر أفواهنا نتلقى الأوامر ونستقبل الضربات والطعنات بذلة وخنوع، خصوصاً وأن العدو لنا بالمرصاد، همُّه التنفيذ المرحلي لما تمليه بروتوكولات حكماء صهيون. وما يزعم ـ زوراً وبهتاناً ـ أنه بشارات الكتاب المقدس، وأن على يهود العالم أن يجتمعوا عليه، ولشد ما نكون رمزاً للبلاهة البلهاء إذا غفلنا لحظة واحدة عن إعداد

العدة في ظل إرادة الجهاد والإفادة من كل معطيات العلم التقني، وما لدينا من ثروات بشرية وطاقات مادية؛ نحشد ذلك كله لمعركة المصير التي يتمكن فيها الفرد الحر الكريم أن يؤدي واجبه في سبيل الله كما ينبغي.

وليس من ظاهرة أوضح في حكمة الحكيم الرحمن من ابتعاثه نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ في هذه البقعة من العالم، بهذه اللغة وتحميله أمانة الرسالة لينذر بها الناس في عصره، وكل من تبلغه الدعوة في كل عصر، والإسراء به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى رمزاً لوحدة العقيدة على هذه الأرض مهما اتسعت الأرجاء، وأن القيادة في إحقاق الحق على الصعيد العالمي هي لمحمد بن عبدالله ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

فأنت تجد كل مقوِّمات الفكر، والموقع الجغرافي، والقدرة الاقتصادية، والنظام الشامل الذي يحمل كل خصائص الخلود.. أنت تجد كل ذلك ـ بحمد الله ـ فلم يبق بعد كل الذي حدث، وما حمله التاريخ من دروس وعبر، وما طلعت به علينا الأيام القريبة من إشارات ومعالم ـ لم يبق حين نذكر الأقصى الأسير ـ إلا أن تصدق العزائم من الجميع ـ وبخاصة ممن هم على كراسي التنفيذ ـ وتُقتحم عقبة الوهم، وتعود هذه الأمة سيرتها الأولى بالإسلام عقيدة وعملاً بقلوب تقية نقية وعقول متفتحة مبصرة، تنطلق من الأصالة وصدق الانتماء، وتؤمن بالتجديد والتحديث في ظل مقاييس الإسلام وقيمه، وتظل على يقينها الذي لا يتزحزح أن اليهودي يهودي مهما اختلف لبوسه وتلونت أشكاله، فالذئب لن يكون غزالاً مهما لعبت بشكله الظاهر يد المسرحي، والثعلب لن يتخلى عن ثعلبيته مهما تلا في العالمين من الحِكم..

وإذا كنا لا نؤمن بنبي بعد محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ . . فإن أعداءنا جاءهم من يزعم لهم أنه النبي الذي لم يذكر في التوراة لما يحمله من الإخلاص ليهوديته العتيقة المعقدة، التي يضفي عليها المنصب والموهبة والموقع الدولي كثيراً من القدرة على تنفيذ ما يريده دعاة أرض الميعاد. لكن ذلك كله لن يزيد المؤمن الصادق المتطلع إلى الشهادة في سبيل الله إلا إيماناً وثباتاً على الحق وإصراراً على متابعة الطريق. وإن العزيمة الصادقة هي التي تجعل المؤتمرات واللجان والمقررات عناصر فعالة تدفع العجلة الظافرة إلى الأمام، لا وسيلة من وسائل امتصاص المشاعر المعادية لأعداء الله. وحين نقف في مواجهة العدو بمخططاته وأعوانه مهما ستر هؤلاء الأعوان تأييدهم لوجوده بزخرف القول، فإن وقفتنا تكون الوقفة المستعلية التي تجعل أولئك المنافقين يشعرون ـ حقاً ـ أنه حتى في منطق مصالحهم القومية عليهم أن يدركوا من نحن وما هي مواقفنا وماذا تحت أيدينا.

إن مع طالع كل شمس، ومع كل ذرة من ذرات الأرض برهاناً جديداً على أن نصر الله كائن لا محالة إذا نحن قدمنا الدليل على إرادة النصر لله.

وما أكرمه دليلاً على أن أمتنا بدأت تضع قدمها على الطريق حين تجعل مصباحها الهادي قول الله تباركت أسماؤه: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ**﴾. وقوله: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا**﴾. والله ولي المتقين.

تقوى الله.. والواجب (*)

لم يكن على سبيل المصادفة ما نراه في القرآن الكريم وحديث الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ من التركيز على التقوى عند الإرشاد إلى أي عمل، ومن التذكير الدائم بالإيمان الذي هو القاعدة التي يقوم عليها البناء. ولعل شمول المسؤولية في الإسلام [**كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته**] يجعل هذا الأمر في غاية الأهمية؛ لأن تقوى الله تعالى واستذكار الإيمان ومعانيه، ثم ما تقتضيه كلمة التوحيد؛ كل ذلك يشكل الحراسة الحقيقية للمسؤولية أن يهيم صاحبها في متاهة الظلم، أو أن ينزلق في مهاوي الانحراف.

وفي تاريخ هذه الأمة ما يستوقف الناقد البصير من مواقف وأيام عصيبة اتضح فيها أن الأمانة في المسؤولية، وتقوى الله فيها، ومراعاة ما يكون من حقوق الخالق وحقوق المخلوقين، هي التي غيرت مجرى الأحداث، وجعلت الأمة تقف على قدميها في مواجهة ألوان من التحديات السياسية والاجتماعية والفكرية.

ويبدو أن من الطبيعي ـ والإسلام وحدة متكاملة ـ أن يكون نطاق السلوك في القيام به وتحمل تبعاته وحدة متكاملة أيضاً، فترى من يتولى أمراً من أمور الأمة لا بد له من التكامل في ميدان تصرفاته قولاً وعملاً وسلوكاً،

(*) مجلة حضارة الإسلام: العدد السادس، السنة الخامسة عشرة، شعبان ١٣٩٤هـ، أيلول ١٩٧٤م.

حتى يستطيع الوقوف عند الذي يمليه الواجب، وأداء الأمانة كما ينبغي، ولا يصدق عليه قول الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ: [**إن شر الرعاء الحُطَمةُ**].

وحين يكون الحديث موصولاً بكلمة التقوى ومدلولها وشمول هذا المدلول، حتى يتجاوز ما يتبادر من النطاق التعبدي الظاهر فحسب، إلى مراقبة الله في كل صغيرة وكبيرة من القول والعمل وخصوصاً من يوليه الله أمر الأمة؛ إذا كان الأمر كذلك.. فإنه ينكشف لنا بعض أسرار تكرار الأمر بالتقوى في القرآن الكريم، ثم حرص النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن يربي أصحابه عليها [**اتق الله حيثما كنت**] حتى أصبح عمر يصرح في خلافته: أنه لو ضاعت شاة على طريق العراق لخشي أن يسأله الله عنها، لما كان عليه من تقوى الله وخشية اليوم الآخر، وعلى تحريه الفريد للعدل، والحرص على حقوق الفرد والجماعة، وزهادته في الدنيا وتواضعه، حتى أصبح يتمنى أن يلقى الله وليس له ولا عليه.

ولعل ما تحمله الأيام من النذر صباح مساء، وما نلحظه في كل ما يجري على أرضنا مع العدو، أو في المناطق الأخرى من العالم من حرص الأقوياء دائماً على مصالحهم أولاً، ومعالجتهم للأمور من خلالها في كل التصرفات.. لعل ذلك مما يجعل مسؤولية كل فرد في الثغر الذي أقامه الله عليه أشد وأدق، كما يعطي الأمة حق التساؤل عن التقوى أين هي في نطاق المسؤولية، وكيف أن انحسارها نذير شؤم ودمار، إذ إنها هي صمام الأمان

مع كل تصرف ومع كل عمل، وبمقدار ما يكون من وعي الأمة لدينها تحرص على هذا، فإذا وجد ذلك فالخير هنا، وإلا فعلى الدنيا العفاء.

وفي حقبٍ حرجة من تاريخنا حيث أناخت الحروب الصليبية كلها على البلاد والعباد، واحتل كثير من الأرض واعتدي على الأقصى والمقدسات، كان للتكامل في السلوك وسلطان التقوى على النفوس مع الإعداد الصادق للجهاد أكبر الأثر في وحدة الأمة وقدرتها على مناجزة أعدائها واستنقاذ أرضها ومقدساتها وكرامتها، وعلى سبيل المثال: هذا نور الدين محمود بن زنكي المتوفى سنة ٥٦٩هـ لم تصفه الروايات التاريخية الموثقة بالشجاعة وقوة الشكيمة فحسب، بل أعطتنا صورة التكامل حركة وسلوكاً في ظل تقوى الله عز وجل، حيث تشرق سلامة القصد ونبل الهدف، والمسارعة إلى كل ما فيه مرضاة الله تعالى؛ بإعزاز دينه وتحرير العباد والبلاد من رجس الغاصبين.

فعن حبه للجهاد وشجاعته في ساعات للقاء وإقدامه حدث ولا حرج، حتى قال له القطب النشاوي الفقيه مرة: «بالله عليك لا تخاطر بنفسك وبالإسلام والمسلمين، فإن أصبت في معركة لا يبقى من المسلمين أحد إلا أخذه السيف»، فقال له نور الدين: «ومَنْ محمود حتى يقال له هذا؟ مَن قبلي حفظ البلاد والإسلام؟ ذلك الله الذي لا إله إلا هو..» وتصفه الروايات الموثقة بأنه كان في الحرب ثابت القدم، حسن الرمي، صليب الضرب، يقدم أصحابه، ويتعرض للشهادة، وكان يسأل الله أن يحشره في بطون السباع وحواصل الطير.

وفي الوقت نفسه يذكر التاريخ ـ البعيد عن الهوى ـ من مآثره ـ في نطاق الواجب والمسؤولية ـ أنه أظهر السُّنة، وغيَّر البدعة، وبنى المدارس، ووقف الأوقاف، وأظهر العدل، وأنه كان مواظباً على الصلوات في الجماعات، مكثراً من تلاوة القرآن، كثير المطالعة للكتب الدينية، معظماً للشريعة، حريصاً على فعل الخير، عفيف البطن والفرج، محافظاً على أموال الأمة، مقتصداً في الإنفاق. وعندما اشتكت زوجته من الضائقة، واستقلَّت شيئاً من المال أعطاها إياه: قال لها: «جميع ما بيدي للأمة. أنا خازن للمسلمين لا أخونهم فيه ولا أخوض نار جهنم لأجلك». وكان من كريم خلقه، أنه لم تسمع منه كلمة فحش في رضاه ولا في ضجره، وأشهى ما إليه كلمة حق يسمعها، أو إرشاد إلى سنة يتبعها.

ألا إن كل الأقوياء من غير ذوينا الحقيقيين وأهلينا ينظرون إلى قضايانا من خلال ما يضمن مصالحهم في إطار تخطيطهم الشامل الدقيق، ويحقق التوازن في ما بينهم عندما يتقاسمون مناطق النفوذ في هذا العالم، حاسبين لكل أمر حسابه، مستخدمين كل معطيات العلم الحديث.. والحمد لله. وذلك ما يجعل حرصنا على الذاتية والاعتماد على أنفسنا بعد الله أمراً دونه أي واجب تفرضه مصلحة الأمة. وهذا لا ينافي الاستفادة من الآخرين؛ تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾. والمؤمنون ـ حاكمهم ومحكومهم ـ هم المخاطبون بقوله: ﴿وَأَعِدُّوا﴾ بوصفهم مؤمنين بالعقيدة التي تحت رايتها يقاتلون. ومن أجل ذلك يجب أن يعدوا ما يستطيعون من قوة، علماً بأن كلمة ﴿قُوَّةٍ﴾ كلمة مطلقة ـ إذ هي من المطلق ـ لا تحدُّ بعرف

عصر معين أو بلد معين، فنحن مأمورون بإعداد القوة حسب مقتضيات الحال وتطور الزمن، وما تفرضه أساليب مناجزة العدو في ظل ما يكون من تقدم علمي وحضاري..

نعود إلى التقوى التي يجب أن تزين ذلك كله، وتكون في مواجهتنا ليهود ومن على شاكلتهم: محور التصرف في كل صغيرة وكبيرة، وهي ضرورة للجميع، ولكنها فيمن يوليهم الله أمر الأمة آكد وآكد.. حرصاً على النتائج المرجوة، وإحقاقاً للحق كما أراد الله. ولعلي لا أبعد النجعة على القارئ الكريم إذا ذكرت بأن كثيراً من العلماء على أن آخر آية نزلت من القرآن الكريم هي قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿**وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ**﴾، ولعمري إن هذا الختام المبارك لمما يستوقف المؤمن، ويفتح بصيرته، ويشده إلى وعي أن هذه الرسالة التي اشتمل عليها كتاب الله لا بد في حملها وتطبيقها من تقوى الله، باتقاء كل ما يورث الخسارة في اليوم الآخر، اليوم الذي تقام فيه الموازين بالقسط، وتوفى كل نفس ما كسبت، ولا يظلم أحد مثقال ذرة.

وإني مثبت هنا ما قاله شيخ المفسرين أبو جعفر الطبري في معنى الآية وذلك ما تقتضيه أمانة الكلمة. قال رحمه الله:

«يعني بذلك جل ثناؤه: واحذروا أيها الناس يوماً ترجعون فيه إلى الله، فتلقونه فيه، أن تَردُوا عليه بسيئات تهلككم، أو بمخزيات تخزيكم، أو بفاضحات تفضحكم فتهتك أستاركم، أو بموبقات توبقكم فتوجب لكم من

عقاب الله ما لا قبل لكم، وإنه يوم مجازاة الأعمال، لا يوم استعتاب، ولا يوم استقالة وتوبة وإنابة، ولكنه يوم جزاء وثواب ومحاسبة، توفى فيه كل نفس أجرها على ما قدَّمت، واكتسبت من سيئ وصالح، لا تغادُر فيه صغيرة ولا كبيرة من خير وشر إلا أحضرت، فوفيت جزاءها بالعدل من ربها وهم لا يظلمون، كيف يظلم من جوزي بالإساءة مثلها، وبالحسنة عشر أمثالها؟ كلا بل عدل عليك أيها المسيء، وتكرم عليك فأفضل وأسبغ أيها المحسن. فاتقى امرؤ ربه فأخذ منه حذره، وراقبه أن يهجم عليه يومه. وهو من الأوزار ظهره ثقيل، ومن صالحات الأعمال خفيف، فإنه عز وجل حذّر فأعذر، ووعظ فأبلغ».

والحمد لله في الأولى والآخرة، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

عاد شهر رمضان.. والعَودُ أحمدُ (*)

وهكذا يعود إلينا شهر رمضان. . ونحن أحوج ما نكون إلى اليقظة التي تقفنا على الخط الواضح المستقيم، يعود ـ والعود أحمد ـ وأرض الإسلام متعطشة إلى الوعي النافذ الذي يجعلنا على مستوى الأحداث، نواجهها بوضوح رؤية وصدق عزيمة؛ فالتركة مثقلة، والواقع مشحون بالمتاعب والمصاعب. . فكما تعاني الأمة تداعي الأعداء وتبييتهم المكائد. . فهي تعاني أكثر وأكثر إعراضها في كثير من شؤونها عن منهج الله، وانتكاس كثير من العقول والقلوب، والعياذ بجبار السماوات والأرض.

ولعل من رحمة الله بهذه الأمة: أن جعل لها من الشرعة واعظاً يعظها، ومن الأحكام المطلوب التزامها مذكراً يذكرها. . عسى أن يستيقظ الغافل، ويشتد أزر المجاهد العامل.

يعود شهر رمضان، وهو شهر القرآن والجهاد، وموسم العبادة والمغفرة والعتق من النار؛ وفي جعبته الميمونة ما لا يكاد يحصى من صنوف الخير ودروب الهدى. . وذلك كائن في كل عام منذ أصاب الجزيرة العربية غيث القرآن العميم، وأشرقت على المدينة المنورة شمس المجتمع الإسلامي الأمثل الذي تولى بناءه وقيادته بعد الهجرة سيدنا محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

(*) مجلة حضارة الإسلام: العدد السابع، السنة الخامسة عشرة، رمضان ١٣٩٤هـ، تشرين الأول ١٩٧٤م.

نعم إن ذلك كائن في رمضان في كل عام . . فالخصائص هي الخصائص والسمات هي السمات ؛ لأن الزمان هو الزمان ، والشرعة هي الشرعة ، ووقائع السيرة والجهاد لا تبلى جدتها على الدهر . . ناهيك عن أن القرآن هو القرآن الذي نزل به جبريل على رسولنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبلغه الرسول الكريم إلى الناس . وكما حفظه الله من عوادي التغيير والتحريف . . هيأ العلماء العاملين الذين قاموا على حفظ بيانه وهو السنة .

ولكن القضية قضية هذه الأمة في أجيالها المتعاقبة . . أن تكون على مستوى القناعة والعمل . . فكم تبذل من جهود . . وتنقضي شهور وسنون في إقناع بعض المسلمين بالإسلام . . والتذكير بأوليات الدين وأبجديات معنى النسبة إلى هذه الدعوة المباركة ، التي جاء بها وحياً من عند ربه محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ .

إنها قضيتنا نحن . . في مقدار استعدادنا لتقبل هذا الخير ـ عملاً ـ مجدداً . . . في موقفنا من كتاب الله الذي أنزل في رمضان ؛ هل يظل في حياتنا مسلاة عادية حيناً ، ونواحاً على المقابر حيناً آخر ؟؟ أم أنا نحكِّمه في كل صغيرة وكبيرة من حياتنا ؟ وفي غضون ذلك : يكون الأخذ من رمضان والإفادة من كريم عطائه . . والقيام بحقه كاملاً غير منقوص . . والتفاعل الصادق مع ذكرياته . . وإنصافه من أنفسنا ، بأن نجدد العزم ، ونشمر عن ساعد الجد . . على صعيد التربية . . وفي ساحات المصطلحات والمفهومات ، والمدلول الحقيقي للصوم في شريعة الإسلام . . كي يكون لنا

منه موسم الصلة بالله عن طريق الصيام والقيام والتلاوة والتدبر . . تلك الصلة التي تحرر من العبودية لكل التوافه الفكرية والعملية التي علينا في ممارساتنا اليومية للحياة، سواء أكان ذلك في ما بيننا، أم في ما بيننا وبين أعدائنا؛ حيث الضرورة لانبثاق حب الجهاد والاستشهاد في سبيل الله، والوعي الكامل لطبيعة الأرض، التي يتحرك عليها المسلمون اليوم في شتى أقطارهم، وطبيعة الظروف التي كثيراً ما تتدخل في قضايانا ومشكلاتنا .

وبعد هذا . . كي يكون لنا من رمضان ساحات جديدة من ضياء الأخوة والمساواة وشحذ الهمم ليخرج التصور إلى حركة في عالم الواقع .

إن مئات الملايين التي تحكمها شرعة الإمساك عن المفطِّر . . كما هو توقيت الإفطار حسب الوضع الجغرافي على هذا الكوكب . . جدير بها أن تبصر قضاياها بحرارة الأخوة ونفحات الإيمان فتستعلي على المعوقات التي يحاول الأبالسة أن يضعوها في طريق ﴿**إنما المؤمنون إخوة**﴾ .

إنا ونحن نتطلع مع القارئ الكريم لنفحة ربانية من خلال الحديث عن رمضان . . نعاود القول تذكاراً وتلبية لأمانة الكلمة : إن الصيام من أعمق الأمور التعبدية عند المسلم لما أنه أمانة بينه وبين الله عز وجل، وفي الوقت نفسه لعله في مقدمة الفرائض التي تحمل السمة الجماعية لما أنه إمساك على صعيد المكلفين في العالم الإسلامي كله . . وعلى تعدد المطالع في بلاد الإسلام حسب الموقع الجغرافي، يظل هذا الحزام المضيء من الإمساك المشترك عن المفطِّر من طلوع الفجر الصادق إلى غروب الشمس عنواناً

عريضاً لحركة أعمق وأعمق في حياة المسلمين ـ على اختلاف الألسنة والألوان والبلدان ـ لو استطعنا أن نزيل الركام مَن طريق من ولانا الله مسؤوليتهم على صعيد الفكر والمعرفة، فنجلو صفحات قلوبهم وعقولهم مما لصق بها من أفاعيل التبشير والاستشراق. وإن شئت فقل: والاستغراب، ويكون في مقدورنا ـ إذا سلم المنهج والأسلوب ـ أن نبذر البذرة الطيبة في الأرض الصالحة المنبتة، وعندها نكون قد خطونا الخطوة الأولى على طريق وعي يعيد إلى الأمة وجودها الذاتي، الذي فقدت كثيراً من جوانبه نتيجة كفرانها بقيم مثلى سار الأولون على هديها البناء، وأوجدوا الكيان الحضاري السليم.

أن يحكم تصرفات الفرد سلطان الأمانة من طلوع الفجر الصادق إلى غروب الشمس.. وأن يشعر أنه ليس وحيداً في صنيعه هذا، ولكن معه عشرات بل مئات الملايين.. وأن يمارس الحياة، وهو صائم، فيحس بأن شرعة الإسلام معه في كل لحظة. وأنه ـ مع هذا ـ ليس في الدين حرج، فإذا توافر عذر الإفطار كان له أن يفطر.. ثم يقضي، وقد يكون فطره واجباً في بعض الحالات.. وبعد ذلك كله.. أن يحس الفرد ـ وهو المخلوق الضعيف أمام مولاه ـ أنه دائماً على مائدة رب العالمين عطاء وثواباً ومغفرة ـ ومن بعد ـ عتقاً من النار.. قضية جديرة كل الجدارة باهتمام المربين والدعاة إلى الله.. كيما تعود النفوس إلى حسن استقبال ما يأتي به رمضان، وما تحمله أيامه المباركة ولياليه من خير يعز على الحصر.. وإنها لقضية تحمل في أحد

وجهيها صورة الوعي الأمين الذي هو رئة التنفس على صعيد الفكر، بحيث يدرك الفرد حقيقة الصيام ومعناه ومدلولاته بعيداً عن لوثات أبالسة الإنس والجن وأهل الزيغ والأهواء.

أما الوجه الآخر: فهو وجه الفَيْئة إلى واحة التقوى بالصيام ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ وهذه الواحة الطاهرة المضيئة كفيلة بأن تبدل حياة الإنسان تبديلاً جذرياً، وتحول دونه ودون الضياع.. إنها الضمانة السليمة في ما يواجه كثيراً من فتياننا وفتياتنا من دواعي القلق، وحب التقليد الأعمى، والتطلع دائماً إلى الفُتات المتناثر من موائد الآخرين.. فهم ليسوا هنا.. وليسوا هناك. الأسماء شيء.. والمسميات شيء آخر.. العناوين على صعيد.. والحقائق على صعيد آخر.

وإذا توافر هذا الوعي بوجهيه، باتت فريضة الصيام ـ كما أرادها الله عملية بناء ـ وترميم أحياناً ـ في كيان الأمة، وسعي أمثل إلى الأمام على مستوى الفرد والجماعة والأمة.. وباتت حرمة الصيام، وكيان شهر الصيام من النظام العام الذي لا يحق لكائن من كان أن يخدشه أو يتجاوزه؛ لأنه بذلك يخدش مشاعر الأمة ويتجاوز حدودها.. وعندها لن تقع عيناك على ما تقعان عليه من المناظر المؤذية التي تأخذ ـ زوراً وبهتاناً ـ عناوين الحرية والتقدم ـ أو التقهقر ـ الحضاري!!

وأكثر من هذا يكون في مقدور الأمة بهذا الوعي ـ كلٌ بقدر ما يلي من المسؤولية ـ أن تكشف زيف ما يكون من قالة السوء في أمر الصيام، وأن

تقف الموقف الذي تمليه العقيدة، وصدق الانتساب إلى رسالة الإسلام تجاه من يعطي نفسه حق الفتوى في إجبار فئة من مواطنيه على الفطر في رمضان بحجة الحفاظ على الإنتاج وسوية التنمية ـ ويا لأساطين الاقتصاد ـ وما هي في حقيقة الأمر إلا شهوات باضت وفرخت . . وتنكر تافه للأمة في عقيدتها وشريعتها وتراثها . . وعنوان على أن الحياء قد غاض من بعض النفوس، وإذا ذهب الحياء ذهب كل شيء . . نعم إذا ذهب الحياء ذهب كل شيء . . وصدق رسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ حيث يقول : [**إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى إذا لم تستح فاصنع ما شئت**] .

ودليل ذلك أن هذا الرجل قد أتبع ما حصل قبل سنين بشأن الصيام، بتصريحات عن القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . . . حين راح يتقمم ما قاله بعض أعداء الإسلام، ويلقي به على ملأ من الناس بكل خجل مخجل وذوق علقمي!!! راضياً لنفسه أن يخرج ـ بما يقول ـ عن دائرة كان من الخير له أن لا يخرج منها . . علماً بأن المسلمين اليوم لا ينقصهم العدد . . ولكن المسؤولية أمام الله والتاريخ والأجيال كبيرة وكبيرة لو عقل المغرمون بإلقاء الكلام بعيداً عن مفهوم الدين وسياج العقل!!!

لست الآن في معرض الرد على هذا الغثاء، فقد قام بذلك نفر طيب من العلماء الغيورين فقط، جزاهم الله كل خير، لقد قاموا بما يملكون القيام به . . ولكن الذين أريده هنا ما أشرت إليه في صدر الكلام، من أن القضية

حين ننظر إليها بعمق: تكمن في موقف المسلمين من فرض الصيام وهو ركن من أركان الإسلام، ومن الكتاب الذي أنزله الله فيه.

لقد شاء الله أن تكون أعز معارك الإسلام الحاسمة في رمضان.. وكان جنود الله يصومون عن الطعام ليفطروا على النصر، ويستقبلون الموت بثغور باسمة لتكتب لهم الشهادة التي هي أعز أمانيهم. وعندما يدعو الداعي إلى الفطر: فهم عند شرعة الله.. كما حصل يوم التوجه إلى الفتح.

إن لأرجو في خاتمة المطاف أن تزال العقبات وتتضح السبل، كي يكون في مقدور المربين والدعاة إلى الله أن يعودوا بالجيل الحائر إلى الله، فتنصبَّ كل الطاقات في مرضاة الله عز وجل، ويعود الصيام في حياة الأمة موئل بطولة وإيمان، أصحابه رهبان في الليل أسود في النهار.. والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً..

العيد.. والمنهَج الرّباني (*)

أبداً يتعاقب الليل والنهار.. وتمدُّ الحياة مدَّها، وتعطي الأيام عطاءها وابتلاءها.. والأمة المصطفاة التي لها من ماضيها غناء الفكر والتاريخ وسلامة البعد الحضاري.. جديرة أن تنفض عن كواهلها غبار الخمول.. وتمد إلى منهج الله أيديها بشجاعة الرجال.. كي يكون نبراسَها ونظامَها.. ووقود مسيرتها إلى الحياة الأفضل التي تسعدها وتسعد معها الإنسانية، شأنها في ذلك شأن أولئك الذين باعوا ـ كما وصفهم القرآن ـ أنفسهم لله.. ووقفوا على اليابسة فيما اعتقدوا.. وأدركوا أن حياتهم هي العقيدة التي انبثق عنها النظام.. فالعمل به والحفاظ عليه والتزامه في كل صغيرة وكبيرة هو عنوان الحياة.. والجناية عليه جناية على وجودها وحياتها.. فكل فرد حارس أمين لذلك المنهج الرباني.. على أي صعيد كان تحركه في الداخل مع بني جلدته، أو على ساحة المعركة مع أعداء الله والإنسان.. وبهذا الذي نقول أخذت معارك الحق مع الباطل أبعادها الحقيقية في الماضي؛ من حيث سلامة الغاية، ونبل المقصد، ومن حيث القدرة على المواجهة. واستطاعت الأمة ـ في شتى أقطارها ـ أن تنفي عن طريقها ما كان يتدحرج على وقع أقدامها من عبث وركام.

(*) مجلة حضارة الإسلام: العدد الثامن، السنة الخامسة عشرة، شوال ١٣٩٤هـ، تشرين الأول ١٩٧٤م.

وهذا الذي نقوله عن أولئك الذين باعوا أنفسهم لله ليس بدعاً من القول نزجي به قضايا تجريدية لا تعيش إلا في عالم الخيال. لا والذي خلق الإنسان علَّمه البيان. . إن الإسلام الذي ابتعث الله به محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ ديناً للحياة، واجه به الرسول الكريم ـ على صعيد الواقع الإنساني ـ والذين حملوا تبعاته وأحكموا أنفسهم في التزام شريعته: بشر من البشر يمشون على الأرض، وليسوا ملائكة في العالم العلوي، وقد وعوه وعياً كاملاً تطفح به كتب التراث الإسلامي الخالد. . من أسئلتهم وتطلعهم للمعرفة، وبناء قناعاتهم على المنهج القرآني ﴿**وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤولاً**﴾، ثم الآثار التي خلفوها والتي طبعوا بها المجتمع المسلم، الذي أصبح مثالاً يحتذى في العالمين. ومن بعد ذلك المد الحضاري الذي ألقى ظله على جنبات التاريخ.

ولكن الأمر الذي يعتبر في مقدمة خصائص الشخصية لديهم: البعد عن التناقض والثنائية، ذلك المرض الذي يقع في وهدته كثيرون اليوم على أم رؤوسهم. . التناقض بين الإيمان الكلي بالله ورسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والقرآن الذي نزل عليه، حيث وجوبُ التسليم بالجزيئات التي تبتنى على ذلك، وبين السلوك الذي يقحم فيه العقل إقحاماً فيحمَّل ما لا يطيق، لأنه يحاول مزاحمة الوحي وما هو بقادر، فأين العقل من الوحي؟ إن من وظائف العقل في هذا المجال أن يفهم نصوص الوحي، وأن يدرك شؤون الحياة من خلال ذلك المنهج الرباني الكريم، وأن ينأى بصاحبه عن التناقض؛ فلا يكون مؤمناً في الصباح، ومتشككاً أرعن في المساء.

وعندما تسلم للمؤمن هذه القاعدة الراسخة في بنيته الفكرية والسلوكية تكون ممارسات الحياة كلها لوناً من ألوان البناء في وجوده وكيانه، خصوصاً ما يكون من النقد الذاتي في المنشط والمكره. وهذا الذي نشير إليه هو الذي كان عنصر الإيجابية في غير واحدة من الوقائع في عصر النبوة، حيث الجهاد والتمحيص وقياس كل بعد من أبعاد المجتمع الوليد بمقياس الدعوة الجديدة؛ كالذي حدث ـ مثلاً ـ في أعقاب أحد وحنين من التوجيهات القرآنية، التي وضعت كل حركة في موضعها الطبيعي، وأعطت لكل تصرف قيمته إيجاباً أو سلباً.

ولقد كان التسليم لما جاء من تلك التوجيهات وقبولها الحَسَن في النفوس: عنوان خطوة جديدة تتسم بكل معاني القوة والخير؛ لأن ذلك كان ظاهرة التفاعل الصادق بين العقيدة وحملة هذه العقيدة؛ وكان أيضاً دليل الوعي والنفاذ في كل شأن من شؤون الدعوة، وما تلقاه على طريقها الطويل الذي فيه ـ إلى جانب تطويع النفوس على حمل أعباء الالتزام ـ نفاق المنافقين، ويهودية اليهود، وشرك أهل الوثنية، والأحلاف غير المقدسة التي يعقدها رؤوس الكفر والنفاق بين فئتين من هؤلاء، أو بين الفئات الثلاث حسبِ الذي تسوله أهواؤهم وشياطينهم، في تمالؤ ماكر على الإسلام وأهله، وهو في الحقيقة مظاهرة الباطل على الحق، والكيد للإنسان أياً كان هذا الإنسان.

أقول هذا وعيد الفطر يمسح بإشراقته جبين الزمن، فيفرح المؤمنون بفضل الله أن وفقهم لامتثال أمره بالصيام، فصاموا نهارهم وقاموا ليلهم، وجعلوا

ما بينهم وبين القرآن سبيلاً موصولة في تلاوة وتدبر آناء الليل وأطراف النهار. ولئن جاعت منهم البطون، وسهرت منهم العيون، إن ما يجنونه من ثواب الله، والمنافع العاجلة في الدنيا أمر لا يستهين بوافر قدره إلا من سفه نفسه وكان من المحرومين.

وهذا واحد مما تقتضيه العقيدة وينبئ عن سلامة التصور والسلوك؛ لأن الذي شرع الصيام فرضاً لازماً على المكلف، هو سبحانه الذي شرع وجوب الفطر أول يوم من أيام شوال؛ وإذاً فمصدر التلقي واحد، وليس إلا الامتثال في الأمرين كليهما، والمسلم في الحالين على طاعة لربه عز وجل.

وإذا كانت أيام العيد مدعاة للفرح بفضل الله، فهي في الوقت نفسه ظاهرة المساواة والحس الجماعي في هذه الأمة. فالذين لفَّهم ذلك الإطار النوراني إمساكاً عند الفجر وإفطاراً عند الغروب خلال شهر كامل - على اختلاف المواطن والألسنة والألوان والأجناس - هم هم الذي يشاركونه الفرحة بهذه الشرعة المباركة... وعندما تتفتح البصيرة تحت شعاع الإيمان تكون النقلة إلى حيث يكون الحس الجماعي في كل قضايانا المصيرية، آمالاً وآلاماً، وصدق معاناة، لأن العقيدة أقوى وأقوى، ورباط الاشتراك في التزام أحكامها أدق وأمتن.. وهذه النقطة واحدة من نقاط كثيرة تخرج العيد في شرعة الإسلام عن أن يكون عيداً بالمعنى الكهنوتي، فليس عيداً دينياً بذلك المعنى، ولكنه روح جديدة تسري في كيان هذه الأمة في أعقاب أدائها لعبادةٍ هي ركن من أركان الإسلام، وحافز إلى صقل المشاعر، وفتح

نوافذ الود والمحبة للجميع؛ فالمؤمنون إخوة دون قيد المكان أو الجنس أو اللون أو اللسان؛ وتلك كانت قاصمة الظهر لأعدائنا في الماضي، فلتكن لنا في الحاضر قوة نبني بها كيان هذه الأمة بما يعود على الإنسانية كلها بالخير.

وقبل هذا وذاك.. لعل في يقظة المشاعر بالعيد على النحو الذي أشرنا إليه: ما يحفز إلى وقفة إيمانية يزينها حب الجهاد والاستشهاد تحت سلطان العقيدة يكون من ورائها تحرير أقصانا الجريح، وما فقدنا من الأرض التي بارك الله حولها؛ فالمسجد مسجدنا، والأرض أرضنا دون فوارق أو حدود، لأننا نحن أبناء العقيدة التي أعطت الأقصى ما أعطت من الأفضلية، وأعطت الأرض التي حوله ـ وهي واسعة الأرجاء فيما يسمى بلاد الشام ـ ما أعطت من البركة والخير.. ولن يكون العيد عيداً بمعناه الشامل الحقيقي حتى نفوز بمرضاة الله في بذل كل ما يمكن بذله لتكون كلمة الله هي العليا، ولتطهير الأقصى من رجس اليهود على اختلاف العناوين واللافتات..

وإلى أن تخفق أعلام ذلك اليوم، ويكون لنا العيد الحقيقي بأعمق مفهوماته وأبعاده.. ونكون ـ نحن ـ أهلاً لذلك العيد بكل المتاعب على طريقه الطويل.. لا بد من هزة إيمانية تحرك أعماق الفرد، وتنفي عن كيان الجماعة الوهن وأسبابه، واللامبالاة ودواعيها، وتضع ـ بأمانة وثقة ـ كل الأسس التي تكفل إعداد الجيل وتوعية الأمة، والقضاء على المعوقات،

وتعود بنا إلى حيث نوقن جازمين أن تحقيق المنهج الرباني، يعني سلامة وجودنا، واستئناف الطريق إلى قيادة راشدة للإنسانية الحائرة مجدداً. . وحين نصدق العزم ونتحرك على ساحة الجد، بعيداً عن الرضا بالرسوم والزخارف بديلاً عن حقيقة الدين كما أراده الله. . نجد ما وعدنا ربنا حقاً، ويكون لنا ما كان لأولئك الذين فهموا معنى الصوم والعيد من زاوية الوحدة في مصدر التلقي، فكان الصيام لوناً من ألوان الجهاد، وتربية الإرادة، والصبر ودوام الصلة بالقرآن، وكان العيد إيذاناً بأن المسلم مسلم على كل حال فلا عبادة الصبر تسئمه وتضجره، ولا عبادة الفرح بفضل الله تبطره وتنأى به عن ساحة الحق. . إنه يقظ هنا ويقظ هناك. . من أجل هذا: كانت تكبيرات العيد ترسيخاً لكل معاني العبودية لله وتحرير المؤمن من كل عبودية لسواه، ومن كل خوف إلا منه؛ فهو أكبر من كل كبير، وأعظم من كل عظيم. . ولأمر ما شرع هذا التكبير في الخطبة والصلاة وعلى ساحة أوسع في عيد الأضحى.

ألا ما أحوج أمتنا وقد رَان على حياتها ما لمثله يذوب القلب، وتتقرَّح الأكباد. . أن تستشعر عند العيد، معنى التكبير في العيد. . ما أحوجها والعدو ينتقصها في أرضها ووجودها، أن يكون لها من «الله أكبر» في الأذان وفي العيد ما يذلل الصعاب، ويقضي على بواعث الدعة والوهن. . إننا ـ ونحن لا نملك أكثر من الكلمة نسلمها إلى الطريق عسى أن تصل إلى الأخ القارئ ـ لنسأل الله الذي لا رب غيره ولا خير إلا خيره. . أن يهيئ لهذه الأمة من أمرها رشداً. . حتى تعود ـ بالإسلام ـ سيرتها الأولى فتكون

لها الكلمة المسموعة في أرضها وفي العالمين. وهنالك يكون العيد عيداً بحق، والتكبير تكبيراً بحق، وتنتهي ظاهرة ما قال شوقي:

فلا الأذان أذان في منارته إذا تعالى ولا الآذان آذان

ولسوف تظل أمانة القول والعمل أذاناً يتعالى في سمع الرواد، يوقظ من الغفلة، ويحمل إلى واحة الطمأنينة بوعد الله..

فالله معهم عاملين مخلصين، والله معهم صابرين على الأذى، واثقين بنصر الله، ولن يترَهم أعمالهم..

اللهم لك الحمد في الأولى ولك الحمد في الآخرة، توفَّنا مسلمين، وألحقنا بالصالحين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ونحن على أبواب الحج (*)

كثيرة هي الكلمات التي تتردد على الألسنة، أو تنساب من الأقلام على صفحات الكتب والمجلات عن بعض حكم فريضة الحج، وهو ركن من أركان الإسلام، ومن هذه الحكم أن الحج مؤتمر إسلامي عالمي يمكن للمسلمين فيه أن يتدارسوا شؤونهم، وأن يتذاكروا الآمال والآلام التي تحرك القوى وتبعث العزائم، وأن يرسموا بمنهجية خطوطاً عامة لمستقبلهم بعد أن يكونوا على بصيرة بحاضرهم.

كل هذا يقال - وهو قليل من كثير، وغيض من فيض - لكننا حين نرصد النتائج تطالعنا خيبة الأمل عند المصلحين، والحسرات المحضة عند دعاة الخير، ولعل هذا ما يدعونا إلى وقفة متأملة في هذا الموضوع تقوم بدور الإشارة السريعة، عسى أن يكون من ورائها إشارات ولبنات وخطوات.

فالحقيقة أن اللقاء في الحج - كما هو معلوم - ليس لقاء مؤتمر تداعى إليه البشر، وإنما هو دعوة الله تعالى وفريضة كتابه، فالمفروض أن يلتقي الجميع في ظل بيته خاشعين خاضعين ملبين، تحدوهم العبودية إلى أن يكونوا عند الذي يريده رب البيت الذي حوله يطوفون، وعند العقيدة التي باسم منزلها يلبون، والشريعة التي لشارعها يهللون ويكبرون؛ فعندما تتحول الكلمات من صور جامدة على الشفاه إلى شرارة تضيء القلب وتحرك العزائم سعياً

(*) مجلة حضارة الإسلام: العدد التاسع، السنة الخامسة عشرة، ذي القعدة ١٣٩٤هـ، كانون الأول ١٩٧٤م.

في مرضاة الله عندها نكون قد وضعنا أقدامنا على الطريق الصحيحة الموصلة إلى الغاية. وعندها يكون تدارس الأمور والنظر في مصالح الأمة حقيقة يظلها الهدي الرباني والعبودية الصادقة لله، دونما خضوع للأنا والمصالح العاجلة القريبة في هذه الدار!!

عندما يتحول القرآن في نفوسنا من صور مكتوبة على الورق إلى وقود للهمم، وحركة بناءة في ظل العقيدة، ونور على طريق الذاتية والأصالة ولهب يحرق أعداء الله والإنسان، فنصبح أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين، صادقين في الاستجابة إلى دعوة الحياة.. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ عندها فقط يعمل مؤتمر الحج عمله، ويكون الرجاء برحمة الله واسعاً في أن نخرج من عهدة المسؤولية كل بما حمَّله الله منها وأعطاه من قدرة على أداء حقها.

أما إذا كانت القضية قضية لقاء الأشخاص فالمؤتمرات كثيرة متعددة، والاجتماعات أكثر من أن تحصى.. وليس صعباً أن تقوم الأسباب وتتوافر الإمكانات المالية لهذا.. ولكن القضية تكمن في استشعار أن العقيدة هي التي من حقها أن تملي.. وأن لها مقتضيات علينا أن نكون عندها.. فاللقاء في ظل البيت العتيق.. معناه ـ كما ينبغي ـ الإرادة الحازمة أن على الأمة أن تقف الوقفة الواعية المؤمنة في معالجة قضاياها، وأن تمارس حقها في الحياة ـ ممثلة بمن ولاهم الله أمرها والرواد من أبنائها ـ على المنهج الذي رسمته يدا محمد بن عبدالله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ حيث يجتمعون على الأرض التي كتب عليها مع أصحابه تاريخ الإنسان، ورسم للإنسانية سبل السعادة

في الدارين. وعندها تكون إرادتها من ذاتها، وتصرفاتها مستوحاة من منهجها الرباني، الذي لا يغلق الباب دون الإفادة من كل ما هو خير.

إن ما تعكسه شعائر الإسلام من مظاهر العبودية لله، والخضوع بين يديه، والمساواة بين عباده، والانخلاع من كل ربقة لا يرتضيها الإسلام، والتخلي عن المألوف والشهوة والعادة.. إن كل هذا ـ ومثله كثير ـ جدير أن يحمل الحاكم فينا والمحكوم على أن من التناقض البالغ أن تنطلق الحناجر بالتلبية، وتنطلق الأعمال بالمخالفات، وأن من السلبية بمكان أن نطوف حول الكعبة بأجسامنا، ونطوف حول أنفسنا في ممارساتنا اليومية للحياة.. ولسوف تكون «لبيك اللهم لبيك» حجة على قائليها يوم القيامة حين يستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير، وضربة ترد إلى وجوههم يوم يقوم الناس لرب العالمين. يوم يقال للوالغين في إثم الجفوة ـ خصوصاً من بيدهم أمور الأمة في كيانها ووجودها ـ كانت للإسلام منكم الكلمة، ولغيره العمل.. وكان للعقيدة العنوان، ولنقيضها المضمونات!!!

إنه ليس بدعاً من القول بعد تجربة القرون المتطاولة التي مارستها أمتنا في ظل الإسلام عقيدة وشريعة وسلوكاً.. أن لزاماً علينا في ظل قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: [**كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته**]، أن يكون لنا من فريضة الحج في أعتاب البيت العتيق، وفي ضوء العبودية الصادقة لله عز وجل والمحبة العميقة المؤمنة لنبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ.. منهج ذاتي واضح تواجه به الأمة شؤونها بحشد طاقاتها المادية والمعنوية.. وللأمد

البعيد أن نسلك بوعي وحزم سبيل بناء الإنسان المسلم مجدداً، وذلك بتحقيق أمرين: **أولهما**: إزالة الركام من طريقه؛ ومن هذا الركام ما يكون من جهل بالإسلام نفسه، أو التفات عنه، أو تشكك في قيمه، وانهزام أمام الرياح الوافدة في مجال التغريب الذي يراد منه القضاء على مقومات الأمة، وتشويه ثقافتها الحقيقية على صعيد المعرفة والسلوك.

وثانيهما: العمل الإيجابي الذي يقف بالمسلم على اليابسة بهويته وأصالته، ويفتح نوافذه بوعي على الحياة، فيفيد مما عند الآخرين دون أن تذوب شخصيته، وتتميع مفهوماته، وتضطرب قيمه ومقاييسه. وليس بخافٍ ما صنعته من قبل وما تصنعه اليوم مؤسسات التغريب حرباً على الأمة في معتقدها ولغتها وتاريخها.

إن كل كلمة ينطقها لسان الحاج أو المعتمر، وكل واحدة من شعائر هذه الفريضة المباركة، برهان صدق على أن الإسلام يريد إعلاء عقيدة التوحيد، وتحقيق كرامة الإنسان، ومن أجل ذلك حرّره من كل عبودية لغير الله عز وجل.. ومن أجل ذلك يريد بناء المسلم في معرفته وسلوكه وممارسته للحياة على نهج عقيدة (لا إله إلا الله). الفرد والجماعة والأمة في ذلك سواء. وذلك ما أعطى أطيب النتائج في الماضي، وهو قادر أن يعطي ذلك في الحاضر والمستقبل؛ لأن بناء الإنسان ليس أمراً هيِّناً في كيان الأمة، فحين يوجد الإنسان بعقيدته وحريته وكرامته تتفجر طاقاته ويصبح قادراً على العطاء، ولا تسل عما تفوز به الأمة من خير بعد ذلك، والعكس بالعكس.

ولعل هذا بعض ما يفسر ذلك التكامل في شعائر الإسلام عموماً، حيث تأتي شعائر الحج أيضاً في دائرتها المتكاملة ضمن تلك المجموعة المباركة. لقد خلق الله الإنسان في أحسن تقويم. وشرع له ـ وهو العليم الخبير ـ كل ما هو مناسب وحسن.

كما أن تلك الشعائر حجة علينا أمام الله تعالى.. وأمام التاريخ والأجيال.. وأي أمة لها ما لنا من ينابيع الخير، وشواهد الواقع.. والأمثلة الحضارية الحية التي كرمت الإنسان، وعرفت الإنسانية بوجودها.. ومن الواضح أنه في دائرة أوسع من دائرة شعائر الحج تجد التكامل واضحاً بين الشعائر كلها.

لقد حزب الأمر.. ولم يبق في القوس منزع، وآن لهذه الأمة أن تترجم المبادئ إلى حركة وممارسة في مواجهة قضاياها وبناء أجيالها، وأن تدرك أن الإنسانية ـ ونحن جزء منها ـ لن تحل مشكلاتها بصعود الإنسان إلى كواكب جديدة.. ولا أن يصل الإنسان التقني أكثر وأكثر إلى مخترعات تدمِّر وأسلحة تفتك.. فالذين وصلوا إلى ما وصلوا بالعلم التقني.. وينفقون بغير حساب على رحلاتهم إلى الكواكب هم أنفسهم الذين نذوق منهم الويلات صباح مساء، وهم هم الذين يظاهرون علينا أعداءنا بغير هوادة، ويمتصون دماء الشعوب الضعيفة والمستضعفة بلا شفقة ولا رحمة.. وعلى أرضهم، وقريباً من المعامل والمصانع والمؤسسات تدز الفتن قرنها كل يوم، وتهز المجتمع أبشع جرائم الخطف والسرقة والتدمير وما هو أشنع.

نعم . . عليها أن تدرك ذلك عندما تعمل بحزم على بناء الإنسان المسلم من جديد . . وأن ذلك : ما لم يكن في ضوء الإسلام الذي يدعو إلى العلم في خدمة العقيدة والإنسان . . ولا يتساهل بأخلاقيته على المستويات قيد أنملة . . ويدعو إلى حراسة المبادئ بالفكر والقوة . . ما لم يكن الأمر كذلك فلا فائدة ترجى ، ولا ثمرة تجتلب ، وإنما نقلة من ضياع إلى ضياع . . وقد تتعدد الأشكال ولكن جوهر القضية في أصله واحد .

ولعل هذا الذي نقول هو بعض ما يمليه قول الله تعالى خطاباً لنبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ وهو تعليم للأمة في كل عصر : ﴿ **لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ** ﴾ ولأمر أراده الله ـ وأرض الإسلام تتفجر كل يوم عن ثروة مادية جديدة ـ يذكَّر بهذه الحقيقة الهائلة ﴿ **لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا** ﴾ إذاً هنالك شيء وراء هذا الإنفاق ، وراء المال الذي ينفق ، وراء كل الطاقات المادية التي يمكن أن تبدل . . هنالك تلك الشرارة الهائلة التي تعطيها العقيدة ﴿ **وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ** ﴾ . إنه لابد لهذه الشرارة من أن تعمل عملها حتى تكون الطاقات المادية كلها صالحة أن تثمر ثمارها . ومن هنا كان المثل الذي لم يسبق له شبيه ولا يكون إلا بالإسلام ما قام من الأخوة بين المهاجرين والأنصار بعد الذي كان بين العرب من قبل من فرقة وتناحر ، فكانت تجربة الأخوة والتوارث بالإيمان ـ وإنْ نسخ التوارث من بعد ـ وكانت القوة التي سخرت للخير ، وكان التفاني في سبيل الله ، والتطواف حول بيته بصدق ، والبذل في سبيل العقيدة واحداً من آثار قول

الله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾. انظر إلى قوله ﴿أَلَّفَ﴾ هو الذي ألف بالعقيدة.. وللعقيدة مقتضيات، وللعقيدة حقوق.. وانظر إلى ﴿بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ وقلب المؤمن الذي اتسع لهذه العقيدة وأشرقت بسناها جوانبه، استطاع أن يتجاوز العداوة إلى الألفة، والفرقة إلى الاتفاق.. وانطلق التيار الهائل وسعدت الإنسانية بحضارة الإسلام.

وصفوة القول: إن الحج بشعائره كلها ـ لا تستثن ـ آيةٌ ربانية على سلامة الطريق لو سلكناها.. ومصدر قوة لهذه الأمة لو رافقت كلماتنا الخشية، وارتبطت تلبيتنا بالقلوب.. وجعلنا كلمة الإسلام هي المحكَّمة.. وفي بيت الله الحرام آيات بينات، جديرة أن توقظ الغافل، وتشد أزر العامل، وتحيي الأرض بعد موات.. وذلك ميدان يتسابق فيه السعداء الذين مبتغاهم مرضاة الله.

ألا وإن الفرد الذي هو لبنة الجماعة الأولى: حين يؤدي الشعائر ـ كما ينبغي ـ مستشعراً تلك النظرة الربانية فيما يأخذ وفيما يدع.. ينعكس ذلك بلا ريب على تلك الجماعة.. وعندها يكون اللقاء لقاء قلوب، لا لقاء أجسام وحسب، وتكون البواعث لله.. والطاقات المادية كلها في مرضاة الله، نتحرك فيما نريد.. ضمن هدف واحد رسمت معالمه العقيدة الواحدة في ظل بيت الله الواحد سبحانه. لا يحول دون ذلك حائل، وإذا كان.. فمن الجهاد أن تعمل على إزالة الركام.

وليس من مكرور القول التذكير بأن فضل الله على حجاج بيته لا تحده حدود . . فقد جاؤوه شُعثاً غُبراً وهو ناظر إليهم برحمته وعنايته . أرأيت إلى هذا الحجيج تتنزل عليه الرحمات في عرفة وحول البيت وفي كل موطن تؤدى فيه الشعائر . . كم يكون المسلم صادقاً مع نفسه ومع الله حين يتناول قضاياه غير مولٍّ ظهره لذلك الفيض من العطاء . . ألا ليت لنا ـ وابحث عن الضمير ـ قلوباً تحسُّ وعيوناً ترى . . إذاً لوجدنا في شعائر الحج موسماً لا يدانيه في العطاء موسم، وميداناً من ميادين البناء والإيجابية والإعداد للجهاد ـ ذروة سنام الإسلام ـ لا يقوى على معارضته ميدان . . ولأفدنا من ذلك لدين الأمة ودنياها، ولأيقنا أن كل مظاهر العبودية لله هي ـ في بعض حكمها ـ طريق لإشعال الجذوة المرتقبة من أجل تحرير الأرض والنفوس . . ومعبراً أميناً للتضحية والبذل . . وسلاحاً فعالاً يهدم الفاسد ويبني الصالح النافع .

أما بعد . فلقد يكون من الخير أن نستذكر ما رواه أبو يعلى من حديث أنس قال : سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : [**إن الله تطوَّل على أهل عرفات يباهي بهم الملائكة، يقول : يا ملائكتي انظروا إلى عبادي شعثاً غبراً، أقبلوا يضربون من كل فج عميق، فأشهدكم أني قد أجبت دعاءهم، وشفَّعت رغبتهم، ووهبت مسيئهم لمحسنهم، وأعطيت لمحسنيهم جميع ما سألوني غير التبعات التي بينهم. فإذا أفاض القوم إلى جمع، ووقفوا وعادوا في الرغبة والطلب إلى الله تعالى، فيقول : يا ملائكتي، عبادي وقفوا وعادوا في الرغبة والطلب، فأشهدكم أني**

قد أجبت دعاءهم، وشفعت رغبتهم، ووهبت مسيئهم لمحسنهم، وأعطيت محسنيهم جميع ما سألوني، وكفلت عنهم التبعات التي بينهم]. وهذا الذي ترى ليس خاصاً بمن كانوا على عهده ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ، فقد سأله عمر بن الخطاب ـ في حديث آخر ـ: يا رسول الله، هذا لنا خاصة؟ قال: [**هذا لكم، ولمن أتى بعدكم إلى يوم القيامة**] فقال عمر ـ رضي الله عنه ـ: «كثر خير الله وطاب».

وإننا لسنأل الله الرحيم الرحمن، وندعوه وهو القاهر فوق عباده.. ونلجأ إليه وهو الذي يباهي بالحجيج ملائكته، ويتجلى عليهم بالرحمة والعتق من النار.. أن يفتح القلوب لهدايته من جديد.. وأنْ يجعل نور كلمات رسولنا الكريم غيثاً يروي تلك النفوس العطشى، ويحملها إلى مرابع الخير، وأن يتجلى على هذه الأمة بروح من عنده يسري في كيان الفرد والجماعة.. فتعود سيرتها الأولى على الجادّة.. جادة من قال عنهم: ﴿**يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ**﴾. وهنالك تستأنف الطريق.. وتنهل من منابع العطاء.. وتأخذ بأسباب القوة في القلوب والعقول والإعداد.. صنيع سلفها الصالح وروادها الأولين.. كيما تتحرر من كل سلطان غير سلطان الله.. ويكون لها التمكين في الدين.. والأمن بعد الخوف.. وأداء رسالتها في العالمين.

اللهم لك الأمر كله . . وبيدك الخير كله . . ندعوك ندعوك . . وزادنا على ما نحن فيه . . أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء . . وريحاننا وإذا سألك عبادي عني فإني قريب . . إنها أكفُّ الضراعة من الضعفاء . . وأنت الذي بيدك الملك، وأنت على كل شيء قدير . . وأنت يا ربنا المحمود على كل حال . . .